✠

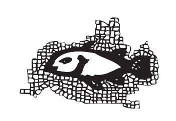
سلسلة إكثوس

من رواد التربية الكنسية بالاسكندرية

الشماس يوسف حبيب

« المؤرخ العلامة »

القس
أثناسيوس فهمى چورچ



اسم الكتاب : الشماس يوسف حبيب
إعداد : القس / أثناسيوس فهمى چورچ
الناشر : دير القديس أثناسيوس الرسولى
إيبارشية أيرلندا واسكتلندا وشمال شرق انجلترا
الطبعة : الأولى
تاريخ النشر : أغسطس ٢٠٠٦
تجهيز فنى وتنفيذ : الرواد ـ ت : ٤٨٤٤٦٢٣٠ (٠٣)

قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية



مقدمة

انطبعت طريقة حياة خدام كنيسة العذراء محرم بك وخدام كنيسة مارجرجس اسبورتنج بالروح عينها التى سرت سريان المياه الجارية وظلت ملازمة لمسيرة التربية الكنسية بالمدينة العظمى الاسكندرية.

وكان من أبرز علاماتها وأعلامها مختار الله القمص بيشوى كامل -«الخادم سامى كامل»، - والخادم الامين المقدس يوسف حبيب نيح الله نفسيهما فى فردوس النعيم.

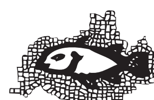
إنهما عرفا الاشياء الموهوبة لهما من الله، وتأججت مواهبهما كشعلة متقدة ولحمهما عرق الخدمة ودموعها مع مسراتها وافراحها إلى أن كملا السعى وربحا كل ربح.

وبمناسبة مرور ٢٥ عام على نياحة الشماس يوسف حبيب انتهز هذه الفرصة لكى أقدم سيرة أعماله من خلال رؤيتى ومعاينتى. فالماضى فى المسيح حاضر فيه لان الزمن لا يفرق ماالله. وصاحب هذه الذكرى عاش متصلاً بكل ما هو مقدس وما هو حى وما يحيا حياة الابد وهو الان عند اله الاحياء الذى يكلل محبيه بالمجد والكرامة.

عْرف باتقان الالحان الكنسية وبمحبته للتسبيح وبالنبوغ فى اللغة القبطية وفى الدراسات الابائية، وتميز باحترامه المتناهى للعبادة. ربى اجيالا من الشمامسة والخدام بمدينة الاسكندرية. وقد كان مشجعاً ومعضداً لأبينا القمص بيشوى كامل فى رحلة خدمته منذ تأسيس كنيسة مارجرجس اسبورتنج وهو ايقونة حلوة على مدى الاجيال. فلتكن ذكراه إلى الابد.

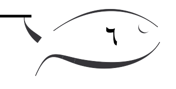
ولله المجد على كل شىء،

القس أثناسيوس فهمى چورچ
٢٠٠٦
Dublin -Ireland



الشماس يوسف حبيب فى سطور

* ولد بالقاهرة سنة ١٩٠٩، ورسم شماساً بيد القديس أنبا صرابامون مطران الخرطوم فى كنيسة العذراء حارة الروم سنة ١٩٢٣..
* حصل على شهادة البكالوريا أدبى سنة ١٩٢٦
* تتلمذ فى مدرسة الاقباط الكبرى بالقاهرة على يد الاستاذ يسى عبد المسيح مدرس اللغة القبطية والمعلم ميخائيل البتانونى الكبير.
* اشتغل بالمحاكم المختلطة والنيابات وتدرج فى الوظائف حتى رقى رئيساً للقلم الجنائى بالنيابات بمحافظة الاسكندرية... إلا أنه استقال من وظيفته وهو لم يتجاوز الخمسين ليتفرغ للخدمة والاطلاع وبناء النفوس.
* عرفته المدينة العظمى المحبة للمسيح الاسكندرية كأحد الرواد الاوائل فى خدمة التربية الكنسية، وكأحد العلامات البارزة فى مجال القبطيات والاهتمام بالمخطوطات والترجمة والنشر واللغة القبطية.
* كان عضو لجنة الاثار القبطية.
* اشتهر فى مجال التأريخ والتوثيق والترجمة للمخطوطات القبطية.
* درس «التاريخ الكنسى» لطلبة الكلية الاكليريكية بالاسكندرية وله مئات الابحاث والمنشورات المترجمة. وقد وصفة قداسة البابا شنوده الثالث بأنه (المؤرخ العلامة).
* رافق المتنيح القمص بيشوى كامل فى رحلة خدمته من البدء، وقد كان له بمثابة «المعلم» والسند والرفيق. منذ البدايات فى خدمة التربية الكنسية بكنيسة السيدة العذراء الام بمحرم بك اسكندرية.
* تنيح بسلام فى عيد شهادة يوحنا المعمدان ٢ توت/ ١٢ سبتمبر لسنة ١٩٨١ وهو فى سن ال ٧٢ سنة وتشابه سيرته النقية وبتوليته ونسكه وشهادته للحق صاحب هذا التذكار... وستبقى ذكراه باقية إلى الابد بعد أن شهد للعريس السمائى وكمل السعى.



قصة حياة وذكريات

الشماس يوسف حبيب

* عرفته الاسكندرية فى بداية شبابه خادماً شماساً فى كنيسة العذراء بمحرم بك خلال الخمسينيات والستينيات. وكان بحسب السن يكبر جيل الخدام الذين كان «سامى كامل» أبونا بيشوى كامل أميناً لخدمتهم فى كنيسة محرم بك.. لكن روحه الشابة كانت قريبة لهؤلاء الشباب الغيورين.

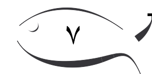
* وكان دائماً يجلس بينهم فى الكنيسة وفى المقصورة وفى النادى وأمام المضيفة يكلمهم ويعلمهم ويصلى معهم.. وكان يردد شعار «المسيح فىَّ» ومن هذا الملء كان لجماعة الخدام فى كنيسة العذراء محرم بك، لقاء واغابى بعد كل قداس... يدعوهم المقدس يوسف إلى بيته الذى كان آنذاك مجاوراً للكنيسة ببضعه امتار ليتناولوا لقمة المحبة، ويعد لهم أكواب الشاى فى أكبر إناء عنده. الامر الذى صار تقليداً يقام فى كل شهر بأحد البيوت لمناقشة الامور المختصة بخلاصهم وخدمتهم.

* ولأن المقدس يوسف الاكبر سنا بين جيل الخدام فكان لهم بمثابة الاب والمعلم، يعيش بقلب شاب يتجاوب معهم ويتقارب فى بساطة وتلقائية « بقصة أو بموقف أو بقول» ويسير معهم حتى منازلهم.

* ومن كلماته التى كان يقولها ويرددها:.

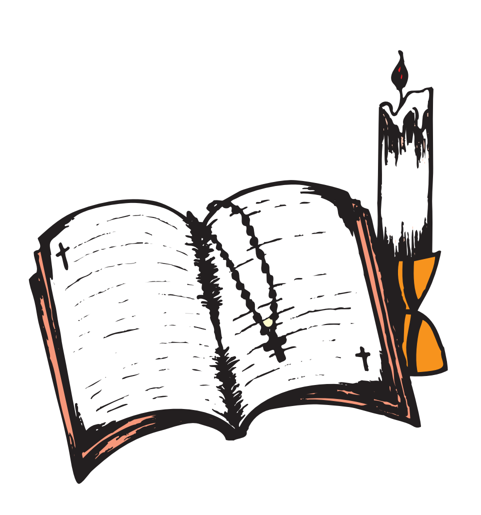
❖ بعد القداس يقول : «أنت أخذت حسنة» وكان لا يتعجل الخروج من الكنيسة بل يظل جالساً فى الخورس بعض الوقت .

* كان يقول بعد التناول «الحمل ثمين» وكأنه يعبر عن امتلائه وعن عدم قدرته على الاكل بعد تناوله للطعام الباقى وخبز الخلود.



* كان يقول دائماً «اهرب لحياتك» عندما يتحدث أحد معه عن شىء رأه ولا يروقه.

* قال عن الحان الكنيسة ووصفها بأنها «اوبرا إلهية» وقد طيب قلب المخلص بتسبيحه وترنمه وصوته الملائكى الذى كان يرتل به، خاصة فى اجتماعات الصلاة التى كانت تميز خدام هذا الجيل.



تكريسه

عندما دعا صاحب الكرم مختاره الامين أبونا بيشوى كامل واقامة راعياً وكاهناً للقطيع سنة ١٩٥٩. كانت هذه علامة تحول فى حياة المقدس يوسف.. حيث تقدم نحو الاستقالة من عمله كرئيس قلم فى مديرية المرور بالاسكندرية. فى يوم رسامة أبينا بيشوى .

* جند نفسه للخدمة فى كنيسة مارجرجس اسبورتنج الناشئة « تحت التأسيس» منذ اليوم الاول، واجتهد لينال رضى ربنا القدوس... بقدوته وبعيشته الزاهدة بحق فى كل شىء.

* فلم تكن ملابسه البسيطة تنم اطلاقاً عن حالته الاجتماعية ووظيفته الرفيعة التى كان يشغلها. طعامه كالنساك: خبز جاف وجبن وخضروات صائراً عموداً فى هيكل الله.. شماساً خادماً كاملاً للمذبح المقدس مثل الانبا بيشوى الرجل الكامل.

* ويوسف حبيب فى تكريسه كان شماساً انجيلياً كاملاً. وعينة نادرة للتكريس فى نية خالصة ابتغاء مرضاة الله وحده، بلا أى هدف على الارض ولا انتظار لأجرة من الناس مهما كانت.. بعد أن رفض قطيعاً كل المكافأت الارضية سواء كانت مديحاً أو مركزاً أو اسماً أو شكلاً أو زياً أو مالاً أو سلطاناً، حتى أخر يوم فى غربته بهذا العالم.

لم يطلب أى مقابل أرضى أو مديح وكرامه. وكان فى تكريسه مثمراً.. فقد وقف مكان المعلم «العريف» منذ اليوم الأول فى كنيسة مارجرجس أسبوتنج ثم كنيسة الانبا تكلا هيمانوت بالابراهيمية وقام بتدريس الالحان واللغة القبطية التى برع فيها لاجيال من خدام الاسكندرية وشبابها.

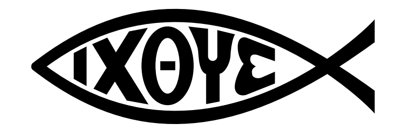
ووضع على عاتقه ـ بدون تكليف من أحد ـ أن يسند المتنيح الطيب الذكر القمص بيشوى كامل فى بدايات خدمته.. فأهتم بالغروس الجدد وتعهد الخدمة باسبورتنج بقدوته ومواهبه وعلمه وسيرته...

وقد كان بحق رجلا كنسياً من طراز نادر، يحفظ الحان الكنيسة بأتقان ويرددها بروح الصلاة.. وظل معلماً للاولاد يسقيهم روح الاباء وينشئهم على حب البيعة المقدسة والمواظبة على الاسرار إلى أن صار للكنيسة خورس جميل.. ثم توارى هو فى اتضاع مذهل واتجه بكل كيانه وجهده وماله إلى مجال أحياء التراث وترجمة الابائيات، والتنقيب فى سير القديسين ونشر سيرهم العطرة. وقد اخرج للنور عشرات السير النادرة التى شجعت اجيالا كثيرة على الحياة مع الله.

اشتهر بمعرفته كعلماء الكنسية الاولين : معرفة الهية لاهوتية مقدسة رؤيوية حقيقية غير كاذبة، فلم تكن معرفته زائفة جسدانية، لكنها معرفة ابى الانوار وكانت نقاوته هى مفتاح معرفته، لان معرفة الله توجد فقط حيث الرضا والسلام... والمقدس يوسف اعتبر أن معرفة الله هى حضنه الذى يضع فيه كل المنشغلين به كما لو كانوا جواهره وذهبه الذى يحفظه فى حضنه.. لذا صارت معرفته تتجه من الله نحوه ومنه نحو الله... دائماً منشغلاً بالعبادة والتسبيح.. « معرفة حوار » فعاش حياة معرفة نور وطهر وفقر ومسكنه وكان المسيح حاضر فيه.

ومن هنا كان اهتمامه الشديد بمناهج الاباء وعلومهم، ومن هنا أتى اهتمامه بالكتابة والنشر والتفت إلى التراث الروحى المجيد وصارت له الريادة فى الكنيسة المعاصرة فى هذا المضمار.

امضى جل حياته يْعلم ويكتب ويتصل بالاوساط اللاهوتية وبالمكتبات فى احساس مرهف ودقة علمية. وصرف وقته وماله فى التعمق فى علوم الكنسية، وقد اهلته لهذا العمل الشاق معرفته المتينه باللغويات خاصة الفرنسية والقبطية والانجليزية. ليس هذا فحسب لكنه كان حيا بالمعرفة .... غير جاف ولا مدرسى.. بل يستقى معرفته لا من مصنفات الاقدمين فقط بل من الشركة الكنسية التى كان يتعمقها ومن المواظبة على التسبيح والخدم الالهية التى كان يمارسها بوعى واستناره. كاحد باعثى الحركة الابائية فى هذا القرن، شارحاً للتراث الارثوذكسى الأصيل وقد ثقف به جيلا من الطلبة الاكليريكين من رعيل مدارس الأحد.



شموسيته

* كان المقدس يوسف صورة للشماس الرزين وللثبات والفكر الروحى النادر المثال. لذا كان خير معين لا بينا بيشوى كامل فى خدمته... فكان موهوباً فى الحفظ والدراسة وحب القراءة والاطلاع والاتقان، معروفاً ببراعته فى اللغة القبطية وحفظ تراث الكنيسة المقدس إلى جانب أعمال سيرته وقدوته.

يمتلىء بقوة سرية ويتهيأ باشواق كثيرة عند وقوفه فى المذبح وبين المرتلين وعند لمس الاوانى المقدسة وفى التبرك من أجساد ورفات القديسيين. ولعل الذين عاينوه يذكروا كيف كان قيامه وسط المرنمين فى كنيسة العذراء بمحرم بك إلى جوار المرتل حبيب الميراهم.. كذلك تقواه وخشوعه وصوته العذب الذى كان يقود به شمامسة الرعيل الاول فى مارجرجس أسبورتنج ثم فى كنيسة الانبا تكلا هيمانوت بالإبراهيمية.

أنه لم يكن يملك التسليم فى عقله ولا فى لسانه فحسب بل فى قلبه.. وديعاً مدققاً، يعرف الله باعلان خشوعه وسجوده، وقد اعطى المثل فى التبكير إلى الكنيسة حيث كان يأخذ منه الخشوع كل مأخذ. يدخل ساجداً خاشعاً فى الحضرة الالهية، يسبح بذهن وتدقيق. خشوعه الروحانى كان بمثابة «ثروة النفس» وطريقه للالتصاق بالله.. من غير شرود، يثبت عينيه نحو السماء حيث شمس البر، ويترنم بتدقيق كما تقود النجوم المتلألئة السفن.

ودائماً يرى أن كنيسة الله الحى هى البيت المبنى كاورشليم التى يجب على كل خادم أن يتصرف داخلها حسب ناموس التقديس كما كان يقول ويعيش...

فكان يسجد للرب فى زينة مقدسة مقدماً مجداً لاسمه، مدققاً لا يستهين بالامور الصغيرة حتى وصل إلى البهجة الطوباوية التى لا تنتهى محمولا بالروح كما على مركبه.



واذكر أنه كان يقول دائماً عبارة «السيد حاضر» تعبيراً عما كان يعتمل فى داخله من احساس بحضرة الله ورهبة المكان حيث باب السماء وبيت الله. كان المقدس يوسف لا يتحدث قط فى الكنيسة ولايتحرك حتى أن بعض الشمامسة من الاولاد الصغار سموه « إبى الهول».

كان يعتبر أن الكنيسة ليست جزءاً من العالم بل هى مدخل إلى الملكوت، فكان يدخل بحمد ويقظة، وقد احنى عنقه للنير الحلو متعلماً طقوس الكنيسة والحانها كطريقة موصلة إلى الله صائراً منظراً للعالم وللملائكة وللناس (اكو ٤ : ٩) وهو بحق عرف كنوز الكنيسة كجواهرجى يقدر اللآليء ويعرف قيمة النفائس . ووسط كل هذا الاداء والتواتر لم يغلبه سلطان العادة والآلية، لكن فى انتباه روحى ومخافه يرفع قلبه ويسبح ويصلى ويقود المرنمين فى القطار الصاعد إلى السماء.

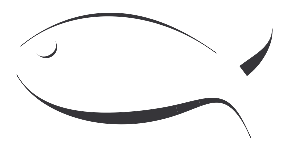
إنه كان يصلى ويفهم ويعرف ويعى ويدرك ويتأمل فى هذيذ حلو.. وأولاده الشمامسة الذين علمهم والذين أغلبهم صار من الاساقفة والكهنة والرهبان وقادة الخدمة قد مثل صوتهم تياراً روحياً منساباً لا يمكن ايقافه بل أنه واصل إلى مرماه لتتردد اصداؤه نحو الابدية والمجد.

يوسف حبيب كان يردد الحان الكنيسة بروحانية مقدسة بعيدة عن العجب والمجد الفارغ له أذن موسيقية.. يتعلم ويتلقى ويتسلم ويحيى التراث المجيد والعريق فى الالحان واللغة القبطية والطقس الذى طالما اهمل واندثر وقل من كان يقدره أو يتذوقه.. لكن أعمال الحفظ والتسليم والاحياء فاقت عنده سائر مسرات الارض ولذاتها.. فأتقن الاداء والنبرات والهزات بدقة وانسجام مع المرتلين معه على منبر التسبيح. متطلعاً على الدوام كى يكون صوته وحياته كلها مقبولة لدى الله أبو الارواح جميعاً.

* أدمن التسبيح والالحان وأصل روح الجماعة من غير نشاز محسوباً ضمن خورس المسبحين مع جميع قديسى الله.. وكان تسبيحه يرفعه دائماً فوق الاتعاب والهموم ويجعل عنده قريحة مسرة وإبتهاج وفرح مقدس، وبها صار شريكا لخدمة الملائكة ولسيرة الروحانيين يتنسم جو الوطن السمائى ورائحة احبائه الذين كتب عنهم وفتش فى سيرتهم ليخرجها للنور بل وعاش معهم واشترك فى معيتهم فى خدمة التسبيح...

* كان المقدس يوسف حريصاً على التسبيح كعمل شركة يجتمع فيه مع الطغمات والخوارس ليبلغ إلى ما بلغوا ويتطلع ليدرك، تعلق قلبه بالتسبيح الحقيقى وصار ذهنه مملوءاً من نعمة الله فأشار إلى تسبيحات مجده بتمجيد وسكون داخلى... يتأمل لاهوتياً الوقت كله.. لذا لم يشيخ بل تجدد يوماً فيوماً على مدى الايام ولم تتسلل الشيخوخة إلى عظمة وكيانه... حتى انتقل وهو ماشياً على رجليه كما كان يتمنى ويطلب من الله.

* ويرجع الفضل للشماس يوسف حبيب فى نهضة اللغة القبطية والتسبيح بالمدينة العظمى الاسكندرية بعد أن جعل كنيسة مارجرجس أسبورتنج كمدرسة منذ نشئتها الاولى... للذين بدأوا حياتهم وعاشوا وتتلمذوا فيها وكانت لهم فيها بداية حسنة ونالوا صبغة ثابتة انتشرت وعطرت الارجاء، ليس فقط فى منطقة الرمل بل وفى الاسكندرية وفى الكرازة كلها.



فضائله

عاش المقدس يوسف تقيا وقد منحته فضيلته أجنحة ليرتفع ويجاهد من أجل خلاصه. سالكاً طرق الرب ووصاياه دون أن يحيد عنها. وكان يحيا حسب قانون الحياة الابدية، أجاد صناعة التوبة وتسلح بنية التقوى وكان التغصب هو رأسماله سالكاً حياة البتولية ودروب التكريس. فأحصى مع العساكر السمائية، وصان العهود التى قررها وقطعها على نفسه بقوة الصليب غير المغلوب، وكان قيامة اللحمى كلاشىء... بسيطا فقيراً ناسكاً معوزاً....

قراءته للانجيل قراءة صحيحة تعبدية... يفهم فهماً صادقاً للحياة ويشهد للوصية بالعمل والسلوك.. هكذا كانت تفسيراته كأحد «لاهوتيو المخلص»، وقد استلم موهبة اللاهوت من المخلص الذى بلا خطية وحده والذى كان يمثل كل اشتياقاته.

حفظه للاسفار كان عجيباً ومقارنته بينها وتعليقاته عليها كانت دقيقة وعلمية عجيبة، وتفسيراته التى قدمها كانت كلها مشروحه بالاباء ومعاشة فى القديسين.

تمسك بالتعليم الالهى كمصباح وعاش نامياً بالفرح الروحى، وواظب على الغبطة بالشرب من كأس الرب.. واقتنى له كنز رجاء بالنور والخصب والتعقل... وكانت روحه عاقلة نشطة فى عمل الخير .... هادىء ومثمر فاحاطت به نعمة الله واضأت عليه ونجته من حرائق وهدم العدو الشرير.

كانت الفضيلة فى حياة المقدس يوسف مستنده إلى فكر والهام الكنيسة حيث ينبغى له أن يكون بيت مبنى، وأن يكون هيكلاً لله... الامر الذى كان يعبر عنه فى كلماته... وتعليقاته وسيرته التى سطرتها حياته وسلوكه قبل قلمه ولسانه.

فكان يرى أن الشيطان عدوه وخصمه الوحيد .. وإن صحبته ضارة تجر إلى الهلاك« حسب قوله » لذلك كان يؤكد على أن الله عون من ليس له عون سواه. وإن الله الغنى والقوى والمحسن هو الذى يعطينا المعونة والغلبة نحن الذين علينا أن نجاهد ضد اجناد الشر وهو الذى يحفظنا فى حماه من الضربات غير مقهورين، من دون أن يستطيع الخبيث أن ينال منا شيئاً. وقد كتب الكثير عن «النصائح الروحية» وعن السهر والاستعداد.

* هكذا كانت كلماته ونصائحه للذين تتلمذوا عليه ونهلوا من خبرته الروحية . ففى صمته وفى كلامه كان من الناطقين بالآلهيات، ومن المخلص الذى بلا خطية مشتهى قلوبنا نال موهبة الصمت المقدس والكلام النافع.. وتنسم خوف الله كالنسمة التى يتنفسها فلم يتفوه إلا بأمور مدروسة ولم ينطق إلا بكلام الروح، وهو من الذين قدموا أبلغ الدروس بحياتهم وسيرتهم وسلوكهم...

لم يكن المقدس يوسف مولعاً إلاباخبار الملكوت ولم يمسك إلا فى سيرة القديسين.. وكان من المحبين للصمت القلبى والوحدة والسكينة الداخلية... كى يستمع لصوت الله. وأهتم جداً بخدمة القلب... لذا علمنا عن الاحتراس والحرص، تحفظ فى كلامه واحاديثه، وكان صمته جيد من أجل الله، وبسكوته نجا من سهام العدو، ولم يفحص الامور ولم يتدخل فى الاراء والسياسات، لانه كان يحسب نفسه ليس مدبراً ولا رئيساً لكنه مأموراً وعبداً خادماً ليس له سلطان حتى ولا على نفسه.

فعاش على الكفاف وصادق ملائكة الكنيسة وعرف عنه عدم التطرق إلى الادانة أو النقد أو حتى الجدال ... حكيماً مدققاً. وقد تعلق جداً بسيرة أرسانيوس الحكيم الذى كان من ابرز الذين اقتدى بهم... تعلق باعماله واقتدى اسلوبه الروحى فى السمو فوق الاحداث بالحب للجميع بلا تحزب.



ارتبط التسبيح بوجوده، فإزداد فى المواظبة عليه وتجدد به وجوده، وكان يردد دائماً «لابد نسأله على الدوام لانه وحده القادر أن يمدنا بكل احتياجاتنا» واعتبر أن الصلوات والتسابيح معونة الهية قادرة أن تبطل أعمال الشياطين وحروبهم المثيرة خلال التقوى والتمجيد....

وكانت نفس يوسف حبيب بحق قثيارة روحية تجتمع مع القديسين وتتكمل بالتداريب والممارسات العملية للنسك واصداء التهليل الروحانى. آله تسبيحه هى ذبيحة جسده وعبادته العقلية وثمار شفتيه. يؤدى اللحن بصوت شجى رخيم، ويصلى بحواسه وجوارحه كلها وكأنه إيقونة صوتية. لسانه مزمار وفمه وتر وصوته الحسن يتهلل وأعماله تسبح الله بمخافة وصلاح، وتخبر بنعمة الله، وحنجرته تمجد العلى بكل همه مستعداً على الدوام لتسبيح النشيد الجديد معلنا قوة الله باعماله وكأنها مزامير فاه بها.. مع كل اشبينات العروس وخوارس كنائس الاسكندرية مسبحين الرب بفرحه الطيب الغامر.

* كذلك اصطبغت حياته بالاتضاع وكانت مدخله وبدايته إلى النهاية... فلم يضع شرطاً لخدمته وتأيد بالمسيح مخلصنا ولم يعتمد على ذاته لذلك اعطاه الله سره الذى لا يمنحه الا لاتقيائه وخائفيه فخدم بتعب غير باطل ممجداً الله كل حين..

* ابتعد عن الغضب والرياء والحسد معتبراً أنها «صناعة العدو الملعون» حسب قوله. واعتبر أن من يتبعها يتشبه بالشيطان ويشتغل بحرفته أو بضاعته... وقد اشتهر المقدس يوسف بالرزانة ووداعة النفس، وصارت حياته وتعاليمه بمثابة... «نظريات روحية» استقاها من خبرة الاباء ومن بطون كتب البيعة. ويرجع الفضل للقمص بيشوى كامل الذى أظهر لنا حياته كمدينة على جبل، وقد جعل هو أيضاً من نفسه كنيسة وعضد بناء الكنائس التى أسسها مختار الله أبينا بيشوى كامل.

نسكه وفقره الاختيارى

* افقر يوسف حبيب نفسه من أجل الله فزاد غناه الروحى... مع كل محبى الانجيل بالحقيقة. تنازل عن أن يلمع وعن رغبة اثبات الذات بالرغم من مواهبة ومؤهلاته، لكنه تنازل عن الكيان الظاهر، وملأ مكياله الحسن لذا ستكال له المواعيد «ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال» (١ كو ٢ : ٩) «كيلا جيداً ملبداً مهزوزاً فائضاً» (لو ٦ : ٣٨) خيرات مائة ضعف فى العدد وفى العظمة.

* تجرد المقدس يوسف من روح الامتلاك وهرب من الكرامة حتى النهاية متشبها بمن تعرى واخلى نفسه « الفقير الابدى» لذا فاضت عليه نعم الله الجزيلة.. بعد أن سار غربته معوزاً. ، لا يملك أى شىء ههنا،... مستعملاً العالم وكأنه لا يستعمله... متعففا فى كل شىء وقتى واشتهاء.

خفيفاً فى مسيرته نحو الهدف المقصود... كل من تعامل معه أحس بأنه شخص من طراز غريب. مشغول دائماً بالخطوة القادمة للحياة الدائمة والمستقر الاخير فى سيرة حسنة.

* كان عفيفاً زاهداً فيما فى يدى الناس. وقد عبر كالنسيم الخفيف المتنسك، وتعلم لغة وعادات البلد التى سيرحل إليها متطلعاً لها فقيراً فى التعلقات والترابيات، ناظراً إلى المدينة التى لها الاساسات والتى سيستوطن فيها.

* امتلك الله بقدر ما سلم نفسه له ليمتلكه، وقدم نموذجاً لخدمة الشماس «العلمانى» المتبتل الفقير لله فى عمل وحركة تتجدد يوماً بعد يوم. إلى أن انفق وانْفق حتى الفلس الاخير.

وكان يرتدى چاكيت اقرب منه إلى بالطو، ويضع نسخا من كتبه فى جيوبه ليقوم بتوزيعها.. وكأنه يأخذ مماله ومن جعبته ليعطينا. لم يفكر لا فى لبس ولا فى أكل بل كانت فلوسه كلها لربنا ولمدارس الاحد. وبالرغم من أنه كان ساكن فى منطقة ڤيكتوريا الا أنه كان أول الحاضرين للكنيسة...

وفى تجرده تجرد من كل شيء وتحرر من الاشياء البشرية، وكانت نفسه حرة تحيا سيرة التدبير فوجد الاشياء التى تفوق الكلام والرتب، وتنعم فى عالم الحق بيسوع المسيح ربنا... ولعله تمثل بشفيعة أرسانيوس معلم أولاد الملوك الذى قال (الذى مات عن العالم لم يعد له بعد فرصه فى أن يوزع الاموال على الناس، لقد مات ارسانيوس) لقد خبر المقدس يوسف خبرة الاماتة والفقر الاختيارى مائتاً فى كل شيء.

فلم يتكالب على شيء ولم يسع لشىء... وتمتع بفضيلة النزاهة: أى أنه لا يكون له أى شىء فى ذاته ولا يطلب ما لنفسه ولا يطمع حتى فيما له، ولم يتمحور حول ذاته، ولم يكف عن تقديم أعمال النسك كل يوم يقينا منه أنها أقوى كرازة وشهادة صامته للمسيح وهو«وآن مات يتكلم بعد» (عب ١١ : ٤)



عشرته للقديسين

امتثل المقدس يوسف بالقديسين وعاش حياتهم سالكاً أعمالهم مشتركاً فى سيرتهم متمثلاً بهم.. فى تلمذة غالية ونفيسة وعاشر ربوات محفل الملائكة الذين رأى أنهم هم الذين ينزعون عنا الثياب القذرة. لانهم يحيطون بمن يخافون الله لكى يحموهم ويمنعوا عنهم الشعور بالهم.

التصق المقدس يوسف بالقديسين كصورة لحياة المسيح وكعلامات له على الطريق.. سعى لا كرامهم تمجيداً وتكريما للمسيح العجيب فيهم وقدم سيرهم ووثقها ، وكتب عن حياتهم وسيرهم ومعجزاتهم وكتاباتهم واعترافاتهم والامهم ونسكهم وشهادتهم وأعمالهم وتعليمهم وتذكاراتهم وتمجيدهم.

ويرجع له الفضل فى تعريفنا بمئات السير التى أصدرها ونشرها وقت أن كانت مجهولة ومصادرها شحيحه. بعد أن ايقن أنهم عون الكنيسة وحراسها وثباتها للايمان، وأنهم يعلموننا الفلسفة الحقيقية ويوبخون الشياطين وفى عشرتهم راحة وعزا ءاً.

قدمهم كمصابيح بهية وكأصدقاء له قريبين منه... فكان يتباسط ويجلس مع أولاده وتلاميذه متحدثاً عن القديسيين والابا ء الاولين. وقد حباه الله بقدرة فذه فى السرد القصصى للسير وللاعمال، وفى الربط بين القديسين كشجرة عائلية (أهل بيت الله).

ولا زلت اذكر جلساته فى مضيفة كنيسة العذرا ء محرم بك وفى مقصورتها وفى النادى وكذلك فى مبنى المدرسة المرقسية القديم وقد صارت حياته امتداداً للقديسين الذين أحبهم وتشفع بهم ونشر سيرتهم الحلوة، وقد تعلم منهم حكمة الالفا ڤيتا التى أوصلته إلى الاميجا أى النهاية السعيدة التى لابا ء الكنيسة.

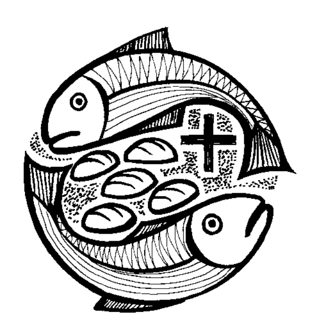
ولعل الذين عرفوه وتلامسوا معه اشتموا فيه انفاس القديسين وعطر فضائلهم، وأننى اشهد بما رأيته فيه بصفة خاصة وقد تأثرت به للغاية، حيث وجدته حكيماً لا بفلسفة باطلة بل بعمق الحكمة الحقيقية التى ليست من هذا



الدهر، ضليعاً فى الادب والفلسفة، متشبهاًبالقديس ارسانيوس الذى كان أول من حقق سيرته بطريقة علمية مدققه.. وسلك بذات القياس «اهرب من الناس وأنت تخلص، اجلس وحدك واصمت».

وبالجملة كانت عزلة يوسف حبيب إيجابية مثمرة وسيرته منيرة بالتقوى العملية. ولا زلت اذكر جلوسه عند باب المضيفة لكنيسة العذراء محرم بك ومن حوله الشباب والخدام يكلمهم عن القديسيين كأنهم أصدقاء اقرباء له... كذلك لا أنسى علاقته بالمرتل حبيب الميراهم وهما معا على خورس شمامسة الكنيسة ... وتدريسة للغة القبطية فى صالات الخدمة وفى نادى المدرسة المرقسية... وفى حجرة الشمامسة بمحرم بك.

وما أحلى عشرته للقديسين وما أروع حفظه للابصلمودية وترديده للذكصوجيات وارباع الناقوس والتماجيد بل والمدائح التى وضعها هو بقلمه وعشق خبرتها ولا ننسى أبداً الابحاث التى حققها حول قديسى الكنيسة وعظاتهم وميامرهم وأجسادهم وتنقلاتهم.



بتوليته

حفظ المقدس يوسف بتوليته محتقراً كل أباطيل العالم حتى أنه جذب كثيرين من جيله إلى عيشه التقوى.. واقفاً ثابتا فى قداسة ورسوخ وتأصيل فأنطبق عليه قول الرب «الحق أقول لكم أنه من القيام ههنا قوماً لايذوقون الموت حتى يروا ابن الانسان آتيا فى ملكوته» (مت ١٦ : ٢٨). مقترباً من المخلص، لا يتزحزح أبداً عن قداسته وثباته ممجداً «قدام الاله ارنم لك» (مز ١٣٨ : ١). كحجارة حية مقدسة ضمن البناء الالهى وكمنارة روحانية مشتملة بنور البتولية وعطر الصلاة.. وكسراج الزيت الذى يسيل بنور معرفة الحق التى نقتطف منها الذكرى والتأمل الاقوى ولا يمكن أن يخبأ تحت أناء.

أقترن المقدس يوسف بالامجاد وانشغل قلبه بالجمال الالهى فى شركة سرية وامتياز مخصوص «أنا لحبيبى وحبيبى لى» (نش ٦ : ٣)... وقد رافق المرتل حبيب حنا الميراهم عريف كنيسة العذراء محرم بك والذى كان هو بدوره متبتل فأستراح المثيل إلى مثيله وكانا معاً من المنيرين المسبحين لله الحى ضمن باكورة القطيع الصغير المقدمة لله لكى يتقدس بها سائر القطيع...

ولا أغالى إذا قلت أن كثيرين من المكرسين للخدمة فى كل دروبها قد تأثروا بهذه الشخوص الحية التى أعطت المثل ووسيلة الايضاح لهم... وإن كان الشيء بالشيء يذكر فالمخيلة والذاكرة حافلة بهؤلاء الاعمدة الذين تكرسوا للخدمة فى كل أنحاء الكرازة بالداخل وفى المهجر أيضاً.

عاش المتنيح يوسف حبيب مثلا ونموذجاً لهولاء جميعاً فى بتولية عجيبة ومجيدة «جذر الابدية وزهرتها وثمرتها» بطبيعته القوية عبر فوق بحر الشهوات وصار كالصفصاف وكالسوسن وسط هذا العالم وكأنه ساكن للمغائر وشقوق الارض، حافظاً زهرته يانعة دوماً لا تزبل نبتتها من السماء. وليس من المستغرب أن يكون ابينا بيشوى كامل علامة فى هذه الطريقة.

أحب المقدس يوسف بالأكثر برية شيهيت واعطاها كرامة وتقديراً كأورشليم المقدسة تماماً. كان دائم الزيارة والتبرك وتربطه علاقة وثيقة بقديسيها وتاريخها... ومن المعروف بانه ذهب إلى أورشليم القدس وزار قبر السيد الرب ... لذا استحسن البعض أن ينادوه «بالمقدس يوسف حبيب».



كمؤرخ ومعلم

كان المقدس يوسف من الذين اطلقوا الشرارة الأولى فى الدراسات الابائية لهذا الجيل.. وهو أول الرواد الاوائل الذين استقينا منهم الرضعات الاولى للفكر الابائى الاصيل، وقد أسس مابُنى عليه بعد ذلك.

ويرجع إليه الفضل فى تشجيع عملية الدراسة والبحث والترجمة وتحقيق المخطوطات... ولا أكون مبالغاً إذا قلت أنه من المشجعين الاول لاصدارات التربية الكنسية بمكتبة العذراء محرم بك... ثم لمطبوعات مارجرجس اسبورتنج والتى صارت منارة للاشعاع الفكرى فى هذا المجال على مستوى الكرازة المرقسية.

وكان المقدس يوسف حبيب يرى أن المكتبة هى اثمن مكان بعد المذابح وبعد أماكن وأجساد القديسين، فكان يعطى المكتبات اعتباراً كبيراً يحب ارتيادها والمكوث فيها. ولازلنا نذكر اعتياده للذهاب إلى المكتبة البلدية بالاسكندرية ومكتبة البطريركية القديمة ومكتبات الاديرة. حتى أنه عمل لنفسه اشتراكاً شهرياً بالقطار، يذهب إلى القاهرة مرتين فى الاسبوع ليفتش وينقب ويترجم ويحقق السير والاقوال ثم يضعها فى كتيبات نافعة للخدمة ولبنيان النفوس.

وقد جاءت كتاباته وترجماته الخاصة لسير الاباء كنزاً لا ينضب، بذل كل ما يملك لتكميلها من أجل الكنيسة وانجيلها وأبائها. ونشعر بالدين الكبير نحوه فى المسيح يسوع ربنا الذى يكلله بشركة الامجاد الالهية ويحسبه مع مصاف القديسين الذى عاش كواحد منهم صديقاً لهم.

أعطاه الله نعمة وفهم قلب حتى أنه كان يقرأ ويبحث ويدرس ويحفظ ويترجم... فازداد حكمة وتدربا بالامور الفاضلة حتى أكمل جيداً ارساء هذا الاهتمام وصار أول اهتمام بالنشر وبالتراث عبر مكتبة مدارس أحد محرم بك.

كان التأليف مادة عمله وشغله الاول بحد ذاته فألف كتباً وشابه الكثير من الأولين. يغوصى فى ذخائر المخطوطات النفيسة حتى لا تنقطع صلتنا بالاباء معلمى الكنيسة.ولم يكن فقط ناسخاً للمخطوطات على مستوى النساخة لكنه عمل بالذى نسخه واتقن ونشر الكثير منه. كذلك كشف عن التاريخ على



اعـتـبـار أنه عـمل الله وسط الـكنيـسـة وكـعلم كنسى يـحيط بحـيـاتهـا من كل الجـوانب. فـأهتم بالسـيـر والمدلولات والاعـمـال والمقـاصد كـمصـدر دائم للالهـام وكينبوع قوة روحية وتراث مقدس له معنى لاهوتى ودلالة غنية.

وكـان حـماسـه عـجـيـباً فى الدراسة احـتـمـل لاجله الاتعـاب والـتنقل والجـهد والسفر ولم يضعف بل دأب فى العمل. ويرجع إليه الفضل كل الفضل فى حفظ تراث وأفكار ومبـادىء وأسمـاء وأقـوال وأعـمـال أبا ءنا التى حرص عـلى نشـرها فى ازمنة كان فيها البحث صعباً والامكانية قليلة.

ومما لا شك فـيـه أنه نال مـوهبـة الكـتـابة والتـرجـمـة من عند الـرب. فـكان يـتلو الايات عن ظهـر قلب ويحكى قـصص القـديسـيـين وسـيـرهم بطلاوة وتدقـيق فى التـواريخ والاحداث والتـفاصـيل والاماكـن والمعـانى... وهو اشـهر وأقدم شـمـاس فى جيلنا له اسهـامات فى هذا الصدد وقد وجدنا نحن منهـا ربح عظيم وحلاوة روحية.

- كـان شـعـار المقـدس يوسف العـملى «تحت الطلب» جـاهزاً للخـدمـة فى أى وقت وفى كل مـكان. لذا قـام بتـدريس المنهج المدرسى للدين المسـيـحى بالمدارس المرقـسـيـة بالاسكندرية (مـرحلتى ثانوى واعـدادى). وله العـديد من المقـالات المنشـورة فـى مـجلة الكرازة بالاضـافـة لمئات الكتب التى قـام بنشـرهـا. كـذلك له ابحاث عن أقدس الاثار المسيحية وأماكن وجودها، وتضمنت كتاباته اهتمامات متنوعة من التـفاسـير والسير والتاريخ والتـرجمات ونصوص المخطوطات والتى من ضمنها ما تم أكتشافه بخرائب طره وأشهر ترجماتة .كانت نقلاً عن مجموعة Sources Chretiemnes... الامر الذى لم يكن سهلاً فى الستينات!!

- وإلى جوار اجادتـه للغـة الفرنسـيـة التى نقل عنهـا أقـوال الابا ء الاقـبـاط. اشـتـهـر أيضاً بنبوغـه فى اللغـة القبطـيـة وكـان يجـيـدها بطلاقـة وقد تـرجم عنهـا الكثير، بل وكـان يقف ليقـرأ الاناجيل ويتـرجمـها ترجمـة فـورية من القبطـيـة إلى العربية والعكس. وكان ضليعاً مدققاً غزير الاطلاع.

وقـد ظل المقـدس يوسف حبيب كنحلة نشـيطة تلتـقط المعـرفـة الروحـانيـة من الينابيع ويؤدى هذه الخدمة حتى النهاية بل وصدرت أخر كتاباته بعد انتقاله



للمجد بمقدمة لقدس أبينا الموقر القمص تادرس يعقوب... بعد أن انجز فى حياته اعمالاً كثيرة من المدونات التى سجلها المؤرخون وكشف لنا عن كثير من السر لاول مرة. وكتب أكثر من مائة كتاب نافع، كذلك وضع الكثير من الذكصولوچيات والمدائح (قبطى / عربى).

الله إلهنا الذى يزن الجبال يعرف بالاكثر ما قدمه من جهد ومال ووقت حتى فلسه الاخير وحتى يسلمنا ما تسلمه من عمل يديه كى نذكره وهو المعروف لدى الله والعزيز عنده.



علاقته بالمتنيح القمص بيشوى كامل

كان للمقدس يوسف علاقة خاصة بأبينا بيشوى كامل منذ أيام خدمة التربية الكنسية بمحرم بك... وكان «سامى كامل» يعتز جداً به وينظر إليه كايقونة فى النسك وفى محبة مجد ربنا ... واتخذ منه «معلماً». حتى أنه كان يطلعه على خصوصياته ويشركه معه فى أفكار كثيرة ففى الوقت الذى كان فيه أبينا بيشوى كامل قبل رسامته لم يكن بعد قد سمع صوته دعوته... كان دائم التشاور معه، حتى أنه رجع من خلوته بالدير على بيت المقدس يوسف وقد رافقه إلى الدار البطريركية لمقابلة البابا كيرلس السادس نيح الله نفسه... ومن هناك كان اختياره لتاسونى انچيل شريكة حياة أبونا بيشوى.

واشترك المقدس يوسف فى وضع النبته الأولى مع القمص بيشوى كامل لكنيسة مارجرجس اسبورتنج حيث رافقه منذ يوم السيامة. قدم استقالته من ذلك التاريخ وتفرغ للخدمة ولبناء وأنشاء النفوس، وكان لصيقاً بابونا يعرف «فكره وسره». وهو الذى قام بتسليم (مجمع القداس) لابينا بيشوى ليلة رسامته واستمر دائم اللقاء به والخدمة معه. حتى أن أبينا بيشوى بنى له غرفتين للاقامة بهما فى نفس بيت سكنه.

ساهم المقدس يوسف فى احياء وحفظ تسليم الالحان واللغة القبطية لاجيال من الشباب والخدام، واهتم بالخدمات الطقسية خاصة أسبوع البصخة المقدسة وسهرات كيهك والمناسبات الكنسية. والتى لم تكن تخطى بالروحانية والاهتمام الحالى.

ولانه كان نافع للخدمة فقد دعاه مثلث الرحمات البابا كيرلس السادس لخدمة الكهنوت، لكنه هرب بمعرفة وقال « اللى عربيته تعبانه لا يمشى فى الطرق الوعرة» معبراً عن عدم استحقاقه وقدر قامته.



فقرات من المراسلات

أخيراً ننتقل إلى بعض الفقرات من خطابين ارسلهما أبينا المتنيح القمص بيشوى كامل إلى المقدس يوسف حبيب :.

خطاب فى ٢٦ هاتور بعد وصول أبينا إلى دير السريان بعد الرسامة :

كنت فى الاسبوع الاخير اجتاز المعركة وحدى.. كنت أنت عن يمينى وأظهرت محبتك بقوة، وتعلقت نفوسنا ببعض كنفسى داود ويوناثان واذ بحياتى كلها مكشوفة أمامك. وأنت وحدك الشخص الذى تلمست فيه روح الله.

لعل يا أخى هذا بداية عهد جديد ـ بكل تأكيد ـ لقد قدمت الاستقالة لنستعد سوياً ومعاً وبتضحية كاملة وتجرد كامل لخدمة المسيح المقدسة فى كنيسة العذراء وفى اسبورتنج بل وفى المدينة العظمى.. ليعطينا الرب موهبة خلاص النفوس.

كنت فى الاسبوع الاخير اجتاز المعركة وحدى كنت انت عن يمينى - واظهرت
محبتك بشده وتعلقت نفوسنا ببعض كنفسى داود ويوناثان . واذ بحياتى
كلها مكشوفة امامك وانت وحدك الشخص الذى تلمست فيه روح
الله - لعل يا اخى هذا بداية عهد جديد - بكل تأكيد - لقد
قدمت الاستقالة لنستعد سوياً ومعاً وبتضحية كاملة وتجرد كامل
لخدمة المسيح المقدسة فى كنيسة العذراء وفى اسبورتنج بل فى المدينة العظمى
الرب يساعدنا ويعطينا موهبة خلاص النفوس التى اطلبها بدموع .

صورة من الخطاب بخط يد المتنيح أبيتا بيشوى كامل

خطاب آخر أثناء الاربعين يوماً بالدير فى ١٩٥٩/١٢/١٨ :

عزيزى الحبيب وأستاذى الفاضل / المقدس يوسف حبيب

أكتب إليك لا عوض النقص الناتج عن افتراقنا بالجسد... أن نفسك العزيزة ملتصقة بنفسى أكثر من الاخ، ذاكراً محبتك الخالصة لانك كنت واقفا معى فى ادق ظروف حياتى متحدثا بروح الله الساكن فيك.

صلى لاجلى لكن أكون أمينا لهذا الدم والجسد الالهى إلى النفس الاخير، حيث سأستلم الذبيحة يوم الاثنين أرجو أن تكون بتزور المنزل عندنا....

عزيزى يوسف ... اردت ان اكتب اليك فى سرعة منذ احد الليالى لاعوض
النقص الناتج عن افتراقنا بالجسد - نعم اكتب وكأنى اخاطب نفسك العزيزة
التى اصبحت ملتصقة بنفسى اكثر من الاخ - ذاكراً بالشكر لله محبتك الخالصة من لانك
كنت واقفاً معى فى ادق ظروف حياتى متحدثا بروح الله الساكن فيك . . . . .

اما عن نفسى فقد استلمت القداس الباسيلى تماماً وسأستلم الذبيحة يوم
الاثنين - صلى لاجلى لكى اكون امينا لهذا الدم والجسد الالهى الى النفس الاخير

صورة من الخطاب بخط يد المتنيح أبينا بيشوى كامل

ساترك للقارئ أن يتأمل مليا فى هذه الخطابات وما جاء فيها وتوقيتها لانها شاهده على العصر وعلى طبيعة علاقة أبينا بيشوى بالمقدس يوسف حبيب صاحب هذه السيرة.

نياحته

في يوم أنتقاله كان كما كان بسيطاً، بحضور القليلين من محبيه، وكأن السماء تقول له : (أنا فقط أعرف قدر إكرامك).

بعد أن اقتنى الملكوت باعماله الحسنة وجاهد الجهاد الحسن. نام وفتح عينيه ليس على عالمنا لكن على مجد ميراث القديسين بعد أن تمنى الموت وهو ماشيا على رجليه، وذلك لمشقة عيشته بتولا لا يعوله أحد على هذه الارض.

ولاننا نثق بأنه لن يتساوى من يتعب مع من لايتعب لذلك الاتعاب التى تعبها وبذلها وكذا مساندته لابينا بيشوى كامل سوف تعلن له فى اللحظة المعينة فى الدهر الاتى. بعد أن تزكى ونال رضى ربنا القدوس وبعد أن ضحى بكل شيء من أجل الله الحى وغدا علماً من علوم الكنيسة وأكمل مشوار حياته.

واليوم يجرى أسمه على السنه الخدام والقادة الروحيين بعد أن انطلاقه للمجد منذ قرابة ٢٥ عاماً. انه يستحق منا التكريم ليس بسبب ما كتب وعلم لكن أيضاً بسبب سيرته وحياته المسكينة بالروح التى هى أروع ما سطر.

وبعد أن كرم الرب فى حياته، هو مكرم اليوم فى مماته لانه عزيز فى عينى الرب موت اتقيائه وخائفيه الذين منهم وضمنهم المقدس يوسف حبيب... متقى وخائف هو للرب وستبقى ذكراه مؤبدة مع السيرة العطرة التى لكاهن الحق السمائى القمص بيشوى كامل إلى يوم مجيئ المسيح الذى له كل المجد والاكرام،،،

